٧. خالتي

(١)

أكثر من تعلق قلبي بهنَّ من خالاتي كانت تروي ذات يوم عن رجل سكن يومًا في شارع الوداد - الشارع الضيق الذي يعيشون فيه وعشت فيه لأعوام. لم تكن تروي الكثير من التفاصيل، في الحقيقة كانت تحكي عنه جملةً واحدةً لا أكثر، لكنها علقت بذهني كعشرات الجمل التي سمعتها منها حتى توفاها الله.

كانت تُمسك بالبطة وتحشي الحبوب في فمها وتُخبرني عن عم "عباس":

- كان كل يوم بيقف على السطح عندهم، ويصرّخ من قلبه..

"يصرّخ من قلبه"..؟ لم أفهم تحديدًا ما معني تلك الجملة حتى ما بعد ذلك بسنوات عندما نزلت يومًا لأكون في حديقة الكلية تمام السادسة صباحًا، رغم أن موعدي معها كان في الثامنة والنصف. كنت متأكداً أنني لن أقابلها لأكثر من عشر دقائق، تسعة منهم سأظل صامتًا أستمع إليها وهي تُخبرني كيف يقتلها

الذنب لأنها أولًا أحبتني، ثم ثانيًا سمحت لنفسها بمقابلتي وعقلها والتزامها يرفضان هذا الحب رغم تحكمه فيها. معادلة مجنونة غير قابلة للحل، تعتبرُ فيها مشاعرها نحوي ذنبٌ لا يغتفر، لأنها تُفضي بها إلى شهوة قُربٍ جسدي وروحي لم تعتد عليها ولم تفهمها فرفضتها. تَعاظمَ شعور الذنب لديها عندما وافقت على مقابلتي التي طلبتُها بدون أدنى فكرة عما سأقوله لها. قتلها شعور الذنب يوميًا فحاولت أن تلغي المقابلة أكثر من مرة، ثم عادت وطلبتها بدموع لم أفهم مغزاها إلا عندما عرفت منها أنها هربت من مشاعرها نحوي إلى شخصٍ آخر قبله عقلها. شخصٌ طرق الباب الرسمي لخطبتها، فقبلت، لكنها لم تستطع مقاومة أن تراني، لأنها تريد ذلك بشدةٍ تفوق أحيانا شعورها بالذنب..

بقدر ما كان الأمر معقدًا من جانبها، كان بسيطًا من جانبي. لم أعرف معنى الحب ولم أؤمن به إلا معها، لدرجة أنني كنت على استعداد – ما دمت سأراها - لتقبل انتظارها لساعتين ونصف الساعة لتخبرني أنها رغم حبها لي لا تستطيع أن تبني ارتباطا بي. كانت في كل جزءٍ من روحي لدرجة أنني مَنطَقْتُ هراء

اعتقادها بأن "الاشتهاء والعشق اللذان يسلبان القلب ممن سواه، قد يأتيان على غرض الحياة التي خلقنا الله من أجله"..
وبقدر ما كانت عباراتها معقدة لم أفهمها.. بقدر ما كان رد فعلي بسيطًا.. أعطيتها سوارًا كنت قد اشتريته لها ومضيت راغبًا بحق في أن "أصرّخ من قلبي".

(٢)

المحشي الذي تُعدّه أمي وخالتي يندرج بكل جدارة واستحقاق تحت بند الأساطير، سألتُ خالتي يومًا وأنا ارتكب جريمة في حق وزني وكوليسترولي، وانتهك طبق المحاشي المنوعة الذي أعدته لي:

- هو أنتي بتحطي إيه في المحشي يخليه حلو كدا..؟

تناولت باذنجانةً محشيةً بكل رزانة، وناولتها لحفيدها العاري تمامًا كعادته - رغم أنه في السادسة من العمر - ليأكلها، وردت عليّ بنفس الرزانة:

- لو قلت لك مش هاتكاله..

تسمّرت للحظة وأنا أتذكر عبارة "أنتوني هوبكنز" في دور هانيبال ليكتر في الجزء الثالث "Red Dragon" عندما طبخ لضيوفه - فرقة الموسيقي الملكية - عازف الكمان غير المؤهل، وأجاب

نفس الإجابة تحديدًا عندما سألتهُ إحدى ضيوفه عن مصدر ذلك اللحم الرائع. انتهى تسمري وتجاهلتُ الإجابة متابعًا الاستمتاع بالمحشي مجهول المقادير، ثم قبّلتها وعدتُ للمنزل مشيًا كالعادة.

الصدمة السابقة في رد خالتي، تكررت بعدها ببضعة أيام في عملي الأول بعد التخرج. كنت متزنًا وقتها.. عدا أنني كنت أخط اسم فتاتي التي فقدتها للأبد بأساليب مختلفة على كل أوراقي. أخطه بشكل لا يمكن لأحد أن يقرأه، وأستمتع جدا بكوني الوحيد الذي يعرف ما هو هذا النقش الغريب الذي يشبه التعاويذ. سمّيتُها الأولى كما ستظل دائما.. كنت وقتها على السطح غير العميق للمرض النفسي فقط.

مدير القسم كان منفعلًا يومها كالعادة، وأخذ يصرخ في الهاتف، وفي من معه من البشر داخل مكتبه أن شركتنا الموقرة صاحبة الأربعين عامًا قد قامت في الأساس على تخوين كل من فيها والشك في تصرفاتهم..

- لما بنعين حد، بنعينه على أساس إنه حرامي، ومرتشي وقواد كمان، وفيه جزء في مرتباتكم اسمه بدل سب وقذف.. أنتم كلكم حرامية.. اتصرفوا بقة على هذا الأساس.

الخمسيني الحكيم لم يتصرف نكالتي ويواري ذلك المكون القذر من مواد الحشو الذي يحشوا بها موظفيه كل يوم، كما وارت هي ذلك المكون المجهول الذي جعل من المحشي أسطوريا. لهذا أكملتُ الطعام ولم أستطع أن استمر لشهرين مع تلك الشركة التي تظهر للجميع على أنها أسطورية أيضاً.. كلنا أصابع محشي بشكل ما..

(٣)

لا أتذكر لماذا كانت المشاجرة مع زوجتي هذه المرة.. لكنني في كل مرة أتشاجر معها أخرج من إطار وسبب المشاجرة وأتذكر فقط الأساس الذي بنينا عليه هذه الزيجة. زواج بسيط عبارة عن ظاهرين رائعين لشخصين عرفا بعضهما البعض لفترة، ثم قررا فجأة أن ما يشعران به حب. قررت أنا في لحظة ما في مسار زواجنا البائس أن ابتعد رعبًا من شبح الأولى الذي يطاردني مع كل نَفَس، بيد أنني عُدتُ لأُنفّذ حُكم الزواج لمجرد أنني أخبرت

من أصبحت زوجتي أنني أحمل مشاعرًا ما لها. المميز في هذا الزواج أنه لا يصمد أمام المشاكل الحقيقة، وكل مشاكل زواجنا كانت حقيقية، ربما لذلك لم أعد أتذكر الأسباب، وربما لذلك كنت أرى النهاية قادمة وإن طال الأمر قليلًا بالقصور الذاتي.

لماذا تركتني تلك البلهاء الأولى..؟ لم أكن أنتوي أو أطلب علاقة غير شرعية بالتأكيد، فلم أفعلها يوما. لو لم يُبن الزواج على اشتهاء متكامل.. جسدي وروحي فعلام يبنى يا..... بلهاء.

- إنت سرحان في إيه أنا مش بأكلمك دلوقتي..؟

كانت هذه هي زوجتي مؤقتًا.. نظرتُ إليها، ثم فعلت ما أفعله عادة.. فتحت الباب وبعد بضع دقائق كنت أسمع كلامًا آخر بصوت آخر محبب..

- ومزعقتش فيها ليها.. متنشف شوية يلا كدا ومتباقش خـــ××××××، إديها على دماغها، وفي الآخر هاتنسى وتِترِجع.

ضحكتُ كما لم أضحك من قبل، فما أعتبره أنا من أبجديات الرجولة، تعتبره خالتي خ××××لنة. على أي حال.. أنا لن أصرخ فيها، ولن أضربها، ولن أطردها من البيت.. وسببي المعلن - نصف الحقيقي - هو أنني لا أحب أن أغرس عداوة في نفسها

نحوي، أو أتسبب في جرحها بجملة أو كلمة أو تصرف في غير موضعه. أما سببي الحقيقي فهو أن ذلك لن يغير من النهاية في شيء.. تفسير واهٍ لن يصمد أمام المنطق الكاسح الذي اجتاحني قائلًا:

- يا واد متبقاش زي البرص كدا.. لا بيضر ولا بينفع بس بيربي عداوة في القلوب.. زعّق زي ما أنت عايز ومتغلطش.. بس اتنيل قول أنت عايز إيه.. في الآخر لو شرياك هاتريحك.. إحنا الستات عارفين إن الرجالة عاملة زي الديوك بالضبط. تقعدوا تعملوا دوشة وتصحّوا الناس من النوم وتتنططوا وفي الآخر الفرخة هي اللي بتعمل كل حاجة.. بتبيض وترقد على البيض..

(٤)

- بقة كدا يا واطي..؟ أعيا وأعمل كيماوي ومتسألش على خالتك.. وأنا اللي كنت باقول عليك مبيهونش عليك..

هل أخبرها أنني فقدت الهدف وفقدت كل شيء..؟ هل يكفي ذلك كعذر..؟ هل ستفهم..؟

هناك لحظةٌ يفقد فيها المرء الإيمان بقيمة ما يفعل وتأثيره وجدوى وجوده من الأصل.. في تلك اللحظة يبدأ الدخول إلى هاوية اليقين بعبثية كل جهد يقوم به، والشك في نواياه، وقدراته، بل ما في قيمة ما قدّمه فعليًا.. لا يهم السبب بقدر الأثر، لأن السبب كان متوقعًا. نهاية مأساوية كاشفة لزواج منته وقت أن بدأ، وعداوةٌ كنت أحرِصُ على عدم زرعها ففوجئتُ بها بشكل لا يصدق. ألآم تلك اللحظة لا توصف ولا يفهمها إلا من مر بها، وقد تُفضي بمن يدخلها إلى نفق آخره الموت أو الانتحار أو الجنون أو كره البشر.. ربما ينال بعضًا من كل ذلك فيتحول إلى شخص آخر أو شيء آخر.. كل الاحتمالات واردة، حتى احتمال أن يعبر ويستعيد نفسه، ويعود لمساره الأول مرة أخرى..

كل هذا لا يهم، ما يهم أن خالتي مريضة وأنا لم أكلف نفسي أن أسأل عليها أو أزورها في المستشفى. خانني المحشي، والجُمَل الأسطورية، ووصفي بالخـ××××، والدعم اللامحدود، ولحظات السرحان التي كانت نتأملني فيها وتخبرني أنني أبدوا كمحمود شكوكو وأنا سارح في الملكوت. لم أستطع وأنا أمسك الهاتف

المحمول وأرد عليها على هاتف أمي التي كانت تزورها في المستشفى وحدثتني عبره..

- معلهش يا خالتي أنا عارف أني واطي.. إن شاء الله أجيلك في البيت لما ترجعي بالسلامة.. مش إنتِ خارجة بكرة..؟

(٥)

- اللي بينزل آخر الخط في القطر.. دا يا إما هربان من تار، يا عبيط مش عارف هو رايح فين، أو حد بيقضّي أي وقت في أي حتة والسلام، أو واحد تايه لدرجة إنه نسي هو نازل فين..

الغد لم يأت لأن خالتي ماتت في نفس الليلة، ورأيتها كجثة بلا حياة يعدونها للدفن، وذهبت إلى العمل في اليوم التالي وكأن شيئًا لم يكن.. لكن شيئًا قد كان بالفعل..

الغد لم يأت أبداً.. لأنني كنت في انتظار آخر الخط لأنزل، وأكون انساناً من جديد. انسانٌ يستطيع الفرح، الاستمتاع، التعبير عما يريد.. ربما الحب.. ما زلت في انتظار آخر الخط، إلا لو قررتُ أن أنزل في محطة ما في يوم ما، لكن النزول في محطة ما يتطلب معرفتها.. وخالتي لم تعد هناك لتخبرني.

تمت...